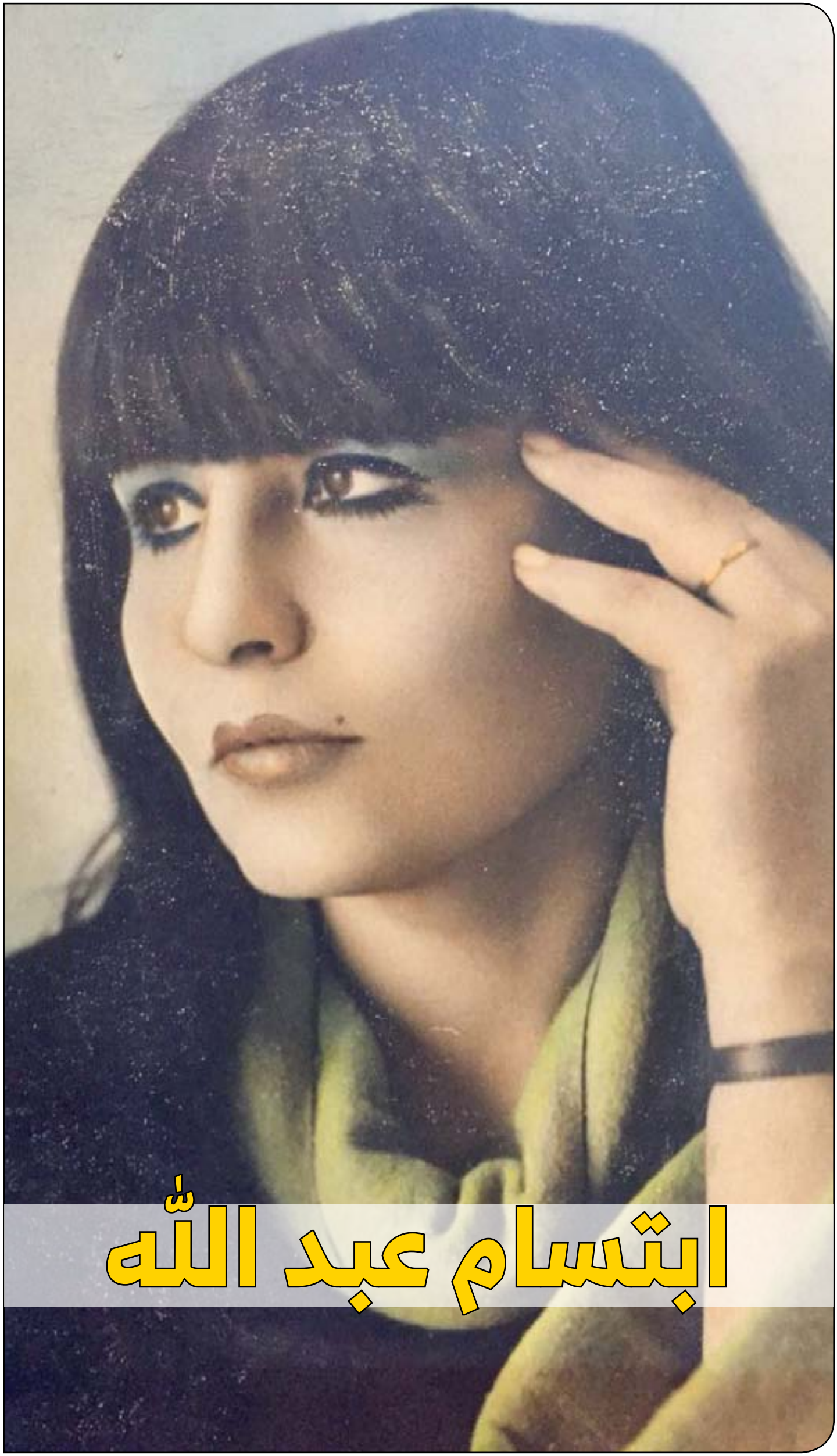

عراقيون
من زمن التوهج

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير
فخري كريم

العدد (4246) السنة الخامسة عشرة -
الخميس (2) آب 2018
WWW. almadasupplements.com

ابتسام عبد الله

4

ابتسام عبد الله
واللقاء مع فيروز

السنين إن حكت..

ابتسام عبد الله في (ميسوبوتاميا!)

هي والإبداع توأم، فمنذ أن بدأت مشوارها الثقافي، ترجمة وكتابة في مختلف الفنون"المقال، النقد، القصة القصيرة، الرواية"كانت محط اهتمام وإعجاب في الذاكرة الجمعية للعراقيين، فأحبوها.. إنسانة فيها كل جوانب الانسانية، فهي مرهفة الحس بشكل عجيب، ومتّقدة الخيال، مشّبوبة بالعاطفة، وتتمتع بخاصية فطرية صلبة، تلتقط حوداث ومصائب وطنها، بعيون متنبّهة ونظرة ثاقبة، وملاحظة كاشفة، تبّصر الجميع بمعنى الحياة وغاية الوجود، وتنفذ في دقة وعمق إلى جوهر الأشياء.

زيد الحلي

لم تجمعني بها، ظروف العمل الوظيفي أو الصحفي، لكن العمل المهني النقابي جمعني بها لأربع سنوات حين اصبحتُ عضوا في مجلس نقابة الصحفيين العراقيين، فزاملتها من عام ١٩٨٦ لغاية عام ١٩٩٠، وهو تاريخ مغادرتها العمل النقابي وبقيتُ أنا مستمراً... عرفتُ خلالها السيدة ابتسام عبد الله، عن قرب فوجدتها من أشد الناس حساسية، وأقلهم قدرة على تحمل الأذى، وهي ذات ذكاء ثاقب غير أن العاطفة الإنسانية، كانت هي المسيطرة على مسيرتها المهنية، فلم أسمعها يوماً وهي تغتب أحداً، أو تناور في كلماتها..

وهي لم تكن مجرد كاتبة ومثقفة ومترجمة مقتدرة وصحفية وإعلامية متميزة، إنما هي وجه من وجوه أسطورة المرأة العراقية، شريكة في صنعها، وضحية من ضحاياها، كونها تمتلك ضميراً يقضا لا يرضى بهوان ولاتقبل بظلم يقع عليها أو على غيرها، وهنا، اتذكر موقفها الشجاع، حين تعرض صحفيون عراقيون في منتصف تسعينات القرن الماضي، الى وضع مأساوي تمثل برميهم أمام زملائهم، وهم على مسرح ساحة الاحتفالات ببغداد بالطماطم والبيض وما شابه ذلك... عندها صاحت بصوت هز القاعة، (لا... لا) وهي التي لم يُسمع لها صوت إلا بالهمس، وكادت هذه الـ (لا) أن تعصف بها وبمستقبل عائلتها، لولا رعاية الله.. لقد رأيتها هالعة لطريقة المسخ الإنساني لزملائها، ومازلت اذاكرتي تلحظ دمعتها الممتزجة بقشعريرة الرفض في ذلك المساء، داكن السواد، وبذلك أكدت ابتسام، بأن الشجاعة هي مظهر من مظاهر الثقة بالنفس.. وبالشجاعة يمكن تقليص مساحة الشر، ووعي الإنسان هو شرارة الخير، وموقفها المتفرد ذاك، سجلته بأسمها بامتياز.

من اللفظ إلى معانيه..

وهنا، يمكنني التأكيد من خلال تجربتي المهنية كزميل لها في مجلس نقابة الصحفيين، أن ابتسام تؤمن بأن العلاقات الإنسانية النبيلة هي تلك التي لا تتحكم فيها المصالح، ولا تسيطر عليها المنافع، وهي إنسانة حضارية، تعرف معنى الإنسانية وتحترمها.. ومتوازنة الشخصية، وتتعامل مع الأشياء بعقل علمي وموضوعيّ، وفي نقاشاتها المهنية، بعيدة عن الأنانية، جريئة، صريحة صادقة مخلصة، لا تجرح أحداً، لكنها عنيدة في الموقف الصحيح.

في كتاباتها، تنطلق من الكلمة الى الكلمة، ومن اللفظ الى معانيه، ولا تحدق في ما وراء الكلمات والألفاظ، هي تكتب وفق منظورها الخاص، معبرة عن دواخل ما تريد بيسر آخاذ، من دون أن تتقيّد بهواجس الأصداء التي ربما يطلقها من يريد المناكدة والنقد، وأظن أن وراء تلك الثقة بالنفس التي تمتلكها ابتسام عبد الله، شعور مبني على قناعة بأن كل مبدع حقيقي، هو شجرة شامخة، باسقة، وترى في نفسها إنها تلك الشجرة.

إنها تؤمن بأن الحياة اكبر من أن يحتويها العقل، وأن الحقيقة ليست مجرد إدراك عقلي بحت، وقد دفعها حبها للحياة بما فيها من ثراء الى السفر في عالم الإبداع وهو عالم واسع جداً، وأثمر هذا السفر عطاءً ثرا في مجال الترجمة والصحافة والتأليف القصصي..

ميسوبوتاميا.. أسطورة الحقيقة

في منتصف ثمانينات القرن المنصرم، أصدرت ابتسام عبد الله روايتها المهمة (فجر نهار وحشي) التي تتحدث عن الحركة المسلحة التي قادها عبد الوهاب الشواف للإطاحة بنظام عبد الكريم قاسم، وما تبعتها من أحداث مؤلمة. وقد وثقت الرواية تأريخ الموصل الحديث، ثم صدرت لها رواية (ممر الى الليل) وأعقبتها رواية (مطر أسود... مطر أحمر) ولها مجموعة قصصية مهمة بعنوان (بخور) وأصدرت مجموعة قصصية أخرى بعنوان (بغداد... الليل والبستان) ورواية"ميسوبوتاميا"التي صدرت مؤخراً بطبعة ثانية في عمان، بعد أن طبعت للمرة الأولى في بغداد ٢٠٠١ وقد تُرجمت العديد من قصصها الى اللغات الأنكليزية والفرنسية والسويدية.

وساهمت في إغناء المكتبة العربية بالعديد من ترجماتها لأبرز الكتّاب العالميين، مثل (في انتظار البرابرة) رواية"ج.م. كوتزي الحائز على جائزة نوبل»، و (سوناتا الخريف) لإنغمار برنمان ومذكرات"انجيلا ديفز"وحياة"د.ه لورنس"لكيت ساغار و«البساط الذهبي"لساغار أيضاً، و"يوميات المقاومة في اليونان"لميكس ثيودور اكس.

وما تقدم، صورة مجتزأة عن ابداعات"ابتسام عبد الله»، ولعل الذاكرة العراقية تحتفظ لها بالكثير من الألق الثقافي، والريادة في المجال التلفزيوني حين أعدت وقدمت برنامجها الشهير"نافذة على العالم"ثم تميّزت ببرنامجها الأثير"سيرة وذكريات"في ثمانينات القرن المنصرم، والذي كانت تستضيف فيه شخصية فكرية أو ثقافية أو فنية وتتحاور معه حول المحطات البارزة في حياته ويستغرق البرنامج قرابة ساعة. وقد أثبتت أنها محاورة ممتازة، وقد استحوذت على إعجاب المشاهدين، ويمكن الاطلاع على بعض حلقاته في (اليوتيوب).

وفي عملها الصادر حديثا في طبعة ثانية وهو رواية (ميسو بوتاميا) وهو الاسم الأغريقي للعراق، استطاعت ابتسام عبد الله أن تصهر العنصر الانفعالي المتمثل بالحصار الأسود الذي جثم على صدور العراقيين في تسعينات القرن المنصرم، بحدث مستوحى من اللوح الأول من ملحمة"كلكامش"أقدم نص أدبي محفوظ في التاريخ الإنساني.. صهرتهما في موضوع واحد، فاصبحت جميع عناصرهما مزيجاً واحداً، يوحي بالعمق والإنسانية.. فيه لفتات الذهن الحاضر وإشراق المعنى المقتنص.

وقد سعدتُ، وأنا اتسلم من المبدعة ابتسام عبد الله هديتي المتمثلة بنسخة من هذه الرواية، التي تناولت فكرتها المشهد الإنساني العراقي تحت آثار ذلك الحصار، لكنها لم تتعامل مع طرفي التناسب، الفقر والغنى بل تعمقت في دواخل أشخاص من الطبقة الوسطى والتغييرات التي طرأت عليهم، ليس فقط من الناحية الاقتصادية المنحدرة، إنما من المتغيرات النفسية والاجتماعية المتفسخة والمتعرية..

آثار في مهب الريح

تقول ابتسام عبد الله عن الرواية"عندما كتبتها كانت فكرة الاحتلال القادم متجسدة أمامي صورة ثابتة، علماً أني أنجزتها في أواخر عام ٢٠٠١، لقد اخترت قصدا كلمة"ميسوبوتاميا»، اسم لمحل بيع الأنتيكات والتحف، وهي تعني بالنسبة لي، الأسم الذي أطلقه الأخرون على العراق وكأني بذلك أعيد ذلك الأسم الى الحياة والذاكرة، دلالة على الحدث القادم..»

وقد تنبأت الكاتبة بما حل بالآثار العراقية من سلب ونهب ودمار، ومن المؤلم أن الواقع أصبح أكثر سوءا بعد الاحتلال، حيث تم تهريب العديد من القطع الأثارية العراقية المهمة وأتلف بعضها. وفي تقديمها للرواية، قالت د. فريال جبوري غزول أستاذة الأدب الانكليزي والمقارن في الجامعة الأميركية بالقاهرة، ورئيسة تحرير (ألف) مجلة البلاغة النقدية"لقد كتبت الرواية باستخدام وجهات نظر متعددة، وهو أسلوب اقترن غالباً بلورنس دوريل"الرباعية الاسكندرانية"ثم اصبح متداولاً عربياً في روايات نجيب محفوظ"ميرامار"وفتحي غانم في"الرجل الذي فقد ظله».. الأسلوب السردي الذي انتهجته ابتسام عبد الله، مُنفذ بمهارة، وبما أن الأحداث كانت تروى من قبل شخصيات مختلفة، فإن القارئ يهيئ نفسه لتطور الأحداث من قبل شخصيات متعددة الأسلوب، واتجاهات متعددة وجهات النظر هي صيغة"ديمقراطية"للتقديم."

القاع والسطح..

وأنا، أقول بعد قراءتي للرواية، أن ابتسام في هذا العمل، تركت ذاتها برفقة قلمها، وذهبت الى عالم المستحيل، سافرت مع دورة الحياة لترسم صور المجتمع، بدأ من القاع صعوداً الى السطح.. مخترقة العلاقات السائدة بين الكلمات، حارثة في أرض الواقع، بحثاً عن النقيض والتضاد بهدف تقديم عمل أدبي وملحمي راق.. وهي بذلك استطاعت عبر هذه الرواية أن تتجاوز نفسها في تجربة بليغة، فأجالت برؤاها الفنية في ساحة الابداع بمختلف الاتجاهات.. وهي تدرك، أن مفتاح الإبداع في العمل الروائي هو جودة الاختيار للموضوع، لذلك عرفت كيف تنفذ برؤيتها وملحوظاتها الى ما وراء المظهر الذي يبدو كثيفاً لدى الأبصار السطحية العابرة، لكنه عندها قضية مهمة لذا فهي بذلت جهداً في تصوير موضوعها والايحاء بمكنونه، بجمل سريعة لماحة، خاطفة الدلالة وصور حركية متتابعة يواكب بعضها بعضاً.

وبلغت في هذه الرواية، حداً مثيراً من حيث سلامة الرؤية، وجرأة الطرح وحرارة الروح، وشعرية اللغة، وقوة التصميم على بلوغ الهدف، وقد اتسعت معنى الكلمة في"ميسوبوتاميا»، لتأخذ بُعداً رمزياً يتحول معها الى أن يكون موقفاً من الحياة بمجموعها من الماضي والحاضر وصياغة المستقبل، وفي هذا العمل، أغرت القارئ بالمتابعة، وسعت لشدّه الى القراءة، من خلال جمع المتعة الى الفائدة، وأجدها تطمح الى أن تجعل المتعة سبيلاً، الى اكتساب الفائدة..

ثقافة إنسانية..

وفي تحليلي لمضمون عملها الثقافي الأخير، لاحظت أن ابتسام عبد الله، تحاول جاهدة لأن تكون الثقافة الإنسانية، مستوعبة للكيان البشري بكل تفرعاته، في ماضيه وحاضره، وأن تسعى الثقافة للتعبير عن مدلولات المستقبل، على مستوى حي لا يتجرد ولا ينعزل، إنما بمشاركة حقيقية في غمار الحياة في شتى ارهاصاتها..

وتأكد لي وأنا أقرأ رواية"ميسو بوتاميا"أن الفكرة الروائية، تسهم في تدوين التاريخ دون أن تطوف في فضاء المخيلة، وهي خيال بملمس حرير يقتفي أثر الحقيقة ويلتصق بها.. ورغم الألم الذي تشيء فيه الرواية، وجدت الأمل يملأ قلب كاتبتها، وهو أمل بمثابة نور أقوى من كل الجراح والمصاعب وضربات الزمن، وهذا ما يؤكد، أن الرواية التي تكتبها ابتسام، تمر بميلاد صعب دائم لايصيبها العجز ولاتهزمها الأيام والسنين، لأن الإبداع هو مبكاها، وهو أفق حياتها.

وأهم ما لمسته في كتابات ابتسام عبد الله، هو دقة احاسيسها، وقدرتها على التقاط الجزئيات الموحية من مجرى الحياة الواقعية، لكي تخلق منها نسقاً أدبياً متكاملاً وهي تستطيع أن تلتقف من الحياة صورة معينة وأن تستبطن هذه الصورة مستوحية منها كل ما يشع من المعاني والأحاسيس، وكل ما يفيد في تعبيرها الفني.

وفي هذه الرواية وغيرها من كتابات ابتسام عبد الله، نلمس نشوة جمالية، والمبدع المعطاء هو من يطيل زمن هذه النشوة في ذائقة القارئ..

وأمسُ أن مبدعتنا استمدت ثقافتها من الحياة أكثر مما استمدتها من الكتب رغم عشقها للقراءة والمتابعة.. والشيء المتميز في مسيرة ابتسام، إنها بقيت تستعيد الحياة ولم تتنازل لسنوات العمل الاعلامي الطويلة بمختلف صوره المرئي والمكتوب، فبقيت تحمل في ذروة تلك السنوات، حساسية الشباب والعنفوان.. وأصبحت للمختلف ضدها أو المتفق عليها، واحدة من ابرز علامات جيلها، ومن الأكثر شهرة والأنع اسماً في ذاكرتنا..

لقد اهتمت ابتسام عبد الله بقصصها في نقد الحياة، نقداً جدلياً، بأسلوب بارع تمثل في خفة الأسلوب وسرعته، مع التركيز والقدرة على الايحاء بتركيب ذكي لحوار شخصيات رواياتها وقصصها.. وهي تدرك أن الابداع القصصي غالباً ما يكون أن نصنع شيئاً من لاشيء، وقمة الفن في التعبير هو أن نقول اشياء كبيرة بألفاظ بسيطة وصور إنسانية أقرب الى السليقة منها الى الصنعة المعقدة التي توحي بالجهد والافتعال.. وأجدها تعرف وهي الصحفية المحترفة، أن الفن التلقائي اسمى بكثير من"الصنعة"المعقدة الخاوية، ودرّبت مشوارها الابداعي على التقاط الملاحظة الدقيقة، وحسن اختيار اللمسة الفنية المعبّرة، لذلك أراها تنتقل في قصصها بيسر من الحكاية البسيطة الى الحكاية المركبة، بأسلوب يجمع بين الروح الشاعرية وروح الابتسامة المؤثرة..

فيروز لدى مغادرتها بغداد: كدت أبكي وأنا أغنّي (زوروني كل سنة مرة)

ابتسام عبد الله

كان منظر لا يُنسى ذلك الذي شاهدته في نهاية حفلة فيروز الأخيرة.. القاعة تلتهب بالتصفيق.. الجمهور المحتشد في القاعة يصبح ويهلل من فرط اعجابه.. وفيروز كزنبقة بيضاء واقفة على المسرح بين أفراد فرقتها.. في تلك اللحظات، بدأت الفرقة الموسيقية بالعزف من جديد، وصدح صوت فيروز بأغنيتها الرائعة"زوروني كل سنة مرة.. حرام تنسوني الأركان كلمات الوداع لها وللرحابنة الذين ملأوا أجواء بغداد عطراً وشذىً.

لقد أحبت بغداد فيروز والرحابنة وقدمت لهم كل مظاهر التكريم والحفاوة والحب.. فماذا تركت بغداد العريقة من أثر لديهم؟

في قاعة الشرف الكبرى في مطار بغداد، التقيت بهم للمرة الأخيرة قبل عودتهم الى بيروت.. كانت فيروز سعيدة بزيارتها لبغداد.. وقالت: المدينة التي كنت أحبها من زمان"إنني اشعر بالحزن لمغادرة بغداد والتي ازداد حبي لها بعد أن تعرفت عليها عن قرب»..

امتلأت عيناي بالدموع وأنا اغنّي"زوروني كل سنة مرة».. ولكنني تمالكت أعصابي بقوة كي أكمل الأغنية، لأنني أغنيها في نهاية كل حفلة في خارج لبنان..

في بغداد، أحسست أن المستمع العراقي ذواق. ويجيد الإصغاء وهو أيضاً يستطيع التعبير عن عواطفه بصدق..

– وما الذي أعجبك في بغداد؟

– اعجبني المتحف العراقي.. إنه منظم بشكل ممتاز.. وقفت كثيراً أمام تاج شيعاد الذهبي الرقيق.. وقلت في نفسي وأنا اتأمل تلك اللحظة الفنية.. ما أجمل الأشياء العظيمة التي تبقى خالدة على مر الزمن بعد أن يموت أصحابها.. والخلود هو الذي يميّز العمل الفني الأصيل عن سواه.

– ماذا اشتريت من بغداد..؟

– لقد اشتريت عباءة عراقية ارتديتها خلال زيارتي للأماكن المقدسة في كربلاء.. لم أكن أصدق بوجود مثل هذه المساجد الرائعة في العراق.. إن كل جزء من تلك الأماكن المقدسة هي تحفة بحد ذاتها.. بزخارفها ونقوشها الدقيقة المتناسقة.. إن تلك الأماكن المقدسة تبدو كقطعة من الماس النادر الذي يبرهن على مدى الجهد الذي بذله الإنسان من أجل جعله هكذا. كما اشتريت مجموعة من علب الحلويات العراقية واشتريت مجموعة من البطانيات العراقية التي أعجبت بجودتها.

وعندما انتهت فيروز من حديثها انتقلت الى الأستاذ منصور الرحباني قائلة:

– ماذا تحدثني أنت عن انطباعاتك؟

ابتسم قائلاً..

بدت بغداد بالنسبة لي كورشة بناء.. هذا ما لمسناه من الذين مكثوا أكثر من أسبوعين.. في خلال هذه الأيام القصيرة، تعرفنا بالشعب الطيب الأمين المحب.. شاهدنا البنايات تعلو لتناطح السحاب.. إن كل هذه الأشياء تبشّر بالتقدم.. لقد امتدت الحضارة الحديثة الى بغداد المدينة المتكئة على تأريخ عريق يمتد إلى طفولة العالم..

أما جمهور بغداد، فقد كان صديقاً، متحمساً ومحبّاً في آن واحد، لقد أسعدنا لقاؤه، ووجدنا تفاعلاً ثورياً بين المسرح والقاعة.. بيننا وبينه.

– ألا تعتقد أن الوقت قد حان لتقديم إحدى مسرحياتكم في بغداد؟

– نحن نرحّب بكل تعاون مع بغداد ولدينا الاستعداد الدائم للحضور..

في هذه المرة اخترنا تقديم المنوعات الغنائية لأننا نفعل ذلك عندما نقدم عرضاً للمرة الأولى في الخارج.. نفضّل المنوعات لأنها مجموعة غنائية تعتمد على المشاهد القصيرة السريعة، أما المسرحية ذات الموضوع الواحد والحوار المغنّى وغير المغنّى، فإننا نتريث في تقديمها الى أن نكتشف ميول الجمهور ومدى تقبّله لهذا النوع من العمل المسرحي.

– وما الذي اكتشفته في الجمهور العراقي؟

– إنه كما ذكرت، جمهور صديق.. وهو جمهور لا يعرف المجاملة.. ومع ذلك فما زلت خائفاً من أن تكون اللهجة اللبنانية غير مفهومة بشكل واضح بالنسبة إليه.

– ألا تفكر بالاستعانة بالشعر الشعبي العراقي في إحدى أغنياتكم؟

– بلى.. إنني سأبدأ بدراسة الفولكلور العراقي الغني، وحتماً سأفكر في عمل ما في المستقبل.

أما هدى حداد التي شاهدت معالم كثيرة في بغداد.. فقد كانت متأثرة بما رأته في"سوق الصفافير"وفي"الشورجة».

قالت: لقد اشتريت كمية كبيرة من"الحنّة"هدية لصديقاتي في بيروت، واشتريت لي قطعاً من الحُلي الفضية القديمة.. وكميات من البهارات والفلفل والهيل والدارسين.لقد أحببت مدينة بغداد.. وكل شيء فيها جميل.. وأجمل ما فيها جمهورها الذوّاق للفن.

وعن انطباعاته عن بغداد، قال مخرج الفرقة ببرج فازليان:

«يحسُّ المرء بنكهة الشرق في بغداد.. أرجو أن تحتفظ هذه المدينة العريقة بطابعها الشرقي الأصيل.. إن الحضارة والتقدم لا يعنيان تقليد الغرب في كل شيء جديد.. وهذا ما وجدته في بغداد المحتفظة بنكهة تاريخها الأصيل والمتقدمة بخطوات سريعة نحو الحضارة والتقدم».

ويقول الفنان نصري شمس الدين:"للمرة الأولى في حياتي، أحسست أنني في بلد عربي مائة بالمائة.. كل شيء هنا يدل على العروبة الأصيلة.. أما الجمهور العراقي فهو مخلص. بعيد عن الرياء.. يصفق تلقائياً للعمل الجيد ويسكت في الوقت المناسب.. إنه جمهور لا يجامل أحداً ولا يصفق للفنان من أجل المجاملة».

عندما انتهى نصري شمس الدين من حديثه.. كان موعد قيام الطائرة قد اقترب.. تبادلت كلمات الوداع وارتفعت الأيدي ملوّحة بالحب.. وغادرتنا فيروز وفرقتها على أمل اللقاء بهم من جديد في أرض بغداد التي تحتضن الفن الأصيل وترحّب بوفودها إليها من كل مكان.

عن صحيفة *الجمهورية* ١٩٧٦

المرأة نصف المجتمع، لايمكن التغاضي عن هذه الحقيقة، وإذا أريد لمجتمع ما أن ينهض أبناؤه ويترقى في سلم الحضارة فما عليه إلا أن يستنهض نصفه الآخر لقد دخلت المرأة في مجالات العمل كافة، اثبتت ذاتها وعزّزت كيانها. وفي العراق نساء حزن على الصدارة، وتربعن في مواقع مؤثرة من مسيرة التطور واستطعن أن يضعن أسماءهن في الواجهة، فمنهن الطبيبة المتميزة والمحامية التي يحسب لها ألف حساب في قاعة المرافعات، والمهندسة في ميادين العمل والممارسة الصعبة، وكذلك الصحفية والأديبة في شتى اهتماماتها الكتابية.

عيسى الصباغ

الكاتبة العراقية ابتسام عبد الله:

العمل الصحفي يُنمّي التجربة الأدبيّة

الروائية والكاتبة الصحفية ابتسام عبدالله واحدة من نساء هذا البلد، خاضت مشوارها بتفانٍ وشقت طريقها لتثبت أن المرأة لا تقل جدارة أو كفاءة عن أخيها الرجل وحققت لاسمها انتشاراً واسعاً بين القراء ومتابعي الصحافة. أكثر من ثلاثين سنة وهي تواصل عملها في الصحافة بثبات، وقد ارتأينا أن نجري معها هذا الحوار لنطلع على تجربتها الصحفية ونلقي الضوء على جوانب من شخصيتها وأحلامها وطموحاتها.

× أجرت احدى الصحف الأسبوعية استفتاء حول أبرز صحفيات القرن الماضي في العراق، وقد تم اختيارك ضمن أبرز عشر صحفيات عراقيات. ماذا تمثل لك التجربة الصحفية؟

. إن تجربتي عريقة وطويلة بدأت منذ أكثر من ثلاثين عاماً، ولم أزل أخوض غمارها. بدأت العمل الصحفي في مجلة (ألف باء) بصفة مترجمة ثم محررة وانتقلت بعدئذ إلى جريدة الجمهورية، وهناك ارتبطت بعلاقة حميمة مع عملي في الصحيفة واستمرت تلك العلاقة قرابة (٢٢) عاماً أي منذ ١٩٧٢ وإلى ١٩٩٤ مترجمة ومحررة ثم رئيسة في قسم الترجمة وسكرتيرة تحرير فيما بعد. لقد كان العمل في تلك السنوات. في صحيفة الجمهورية .ممتعاً وتعمقت لديّ روابط الزمالة والصداقة بالعديد من الصحفيين والصحفيات وقد تجلّت بأفضل أشكالها آنذاك، حيث كنا مجموعة متجانسة نحب عملنا ونبذل كل ما في وسعنا للبلوغ جهدنا ونشاطنا وأفكارنا من أجل المحافظة على مستوى الصحيفة في تلك الأعوام وقد ازدهرت حقاً، وكانت تصدر أسبوعياً ملاحق متعددة في الرياضة والعلوم وملحق خاص بالأطفال. اعتقد أن مجموع تجاربنا كصحفيين في السبعينيات والثمانينيات من القرن المنصرم يمكن اعتبارها مدرسة تعلم فيها من وفد إلى الصحافة من الشباب والأجيال الأخرى.

× وكيف تقيّمين تجربتك الصحفية كأمرأة؟

. كأمرأة صحفية لا أفضل تجربتي عن تجارب العديد من الصحفيين الرجال. أذكر انني بقيت ولأكثر من خمس عشرة سنة مستمرة على الدوام يومياً حتى في أيام العطل والأعياد لأن الصحيفة كانت تصدر يومياً. وخلال عملي في نقابة الصحفيين كعضوة في مجلس النقابة لأربع دورات متعاقبة تعمقت تجربتي واغتنت بالعديد من المشاهدات والزيارات. فقد كنت أزور جبهات القتال في الثمانينيات كجزء من مهمتي النقابية والصحفية. في الحقيقة كانت تجربتي حلوة ومثمرة.

× شيء طبيعي أن تكون مسؤولية المرأة العاملة مضاعفة ولاسيما إذا كانت صحفية ذلك أنها تشكّل مسؤولية أكبر لأن الصحافة كما هو معروف مهنة المتاعب وتحتاج إلى تفرغ، وبناءً على ذلك هل شكّل العمل الصحفي ومهمات البيت عبئاً مضاعفاً عليك؟

.نعم إن للمرأة معاناتها الخاصة فهي إلى جانب عملها اليومي بصفتها مسؤولة عن تدبير شئون منزلها وأطفالها وزوجها فهي تعمل على إثبات وجودها في العمل أيضا، الأمر الذي يدفعها أحياناً إلى التشتت كونها موزّعة بين عملين ومسؤوليتين متغايرتين، علماً أن العمل الصحفي بحاجة إلى تفرغ تام، ولكن بقليل من الجهد والمثابرة والتصميم، بإمكان المرأة تجاوز العقبات لتحقيق النجاح في عملها وبيتها معاً. واعتقد أن المرأة الناجحة والمتفوقة هي التي تستطيع أن توفق بين عملها المهني وشؤونها المنزلية، لاسيما وقد وهبها الله من القدرة والاستطاعة ما تستطيع بهما التوفيق بين ذلك.

× قدمت برنامج (سيرة وذكريات) عبر شاشة تلفزيون العراق وقد حقّق ذلك البرنامج صدىً طيبا وترك انطباعات حسنة بين المشاهدين؟ هلا حدثتنا عن هذه التجربة؟ وهل تفكرين بإعادتها خاصة وأن خبراتك قد نضجت وازدادت اتساعاً؟

.قدمت في مسيرتي عدداً من البرامج التلفزيونية .إعداداً وتقديماً .مثل (مجلة المرأة) وبرنامج (حوار وشخصيات) ثم توجتها ببرنامج (سيرة وذكريات). البرنامج الأول ارتبط باسمي أعواماً طويلة ثم فيما بعد حل بدلا منه برنامج (سيرة وذكريات) وقد واصلت تقديم هذا البرنامج لمدة سبعة أعوام وضيّفت فيه عشرات الأسماء والشخصيات البارزة والمهمة في مختلف ميادين العمل. لقد أحب الناس هذا البرنامج مع أنه كان جاداً ويستغرق ساعة تقريباً وقد حاولت فيه توثيق سيرة وذكريات أولئك الذين قدّموا خدمات جليلة ورفدوا المجتمع بخلاصة جهدهم ومثابرتهم وعصارة أفكارهم، لكنني لا أعتقد أني سأعود يوماً إلى تقديم البرامج والأمر لا يتعلق بالملل، فأنا أحببت ذلك العمل لاتسامه بالحيوية والديناميكية، ولكن وكما اتصور، فإن العمر مراحل ينتقل فيه المرء من مرحلة إلى أخرى وكل مرحلة لها متطلباتها ورؤيتها وأحلامها ومن يدري كيف سيكون الغد؟

× تجربتك كرئيسة تحرير لمجلة (الثقافة الأجنبية) تلقي عليك مسؤولية أخرى. كيف تنظمين هذه المسؤولية؟ وما هي مشاريعك فيها وهل هناك رغبة في تطوير العمل بها وإضفاء لمسة خاصة بك عليها؟

.مجلة الثقافة الأجنبية من المجلات الجيدة والتي لها قرّاء يتابعونها. أرغب حقاً في أن أحافظ على مستواها بل أريد العودة بها إلى أعوام سابقة عندما كانت مزدهرة قبل الحصار، حيث كانت تقدم كل ما هو جديد من دراسات وبحوث ومقالات مترجمة. الحصار وكما تعلم كان له تأثير فاجع على الواقع الثقافي وقد تأثرت مجلتنا بهذا الواقع وذلك بسبب عدم وصول المجلات والدوريات الأجنبية إلينا.. اننا في عملنا نعتمد على المواد المترجمة لذلك أحاول جهد الإمكان أن أحصل على مجلات أجنبية جديدة كي نقدمها إلى القرّاء مترجمة لإغناء ثقافته بفتح منافذ على الثقافة العالمية.

× ما هي نظرتك إلى المرأة المبدعة؟

. المرأة إن كانت مبدعة حقاً، فينبغي أن تكون متحمسة لعملها وأن تتمتع بإرادة قوية، بحيث لا تهتم بالعراقيل التي تصادفها في طريقها وبحيث تجتاز جميع الحواجز التي ترتفع بينها وبين تقدمها ووصولها، فإذا كانت كما وصفت، فإنها تستطيع أن تترك لساتها في المجال الذي تعمل فيه سواء كان ذلك في الأدب أو الصحافة أو التمثيل أو الرسم أو أي مجال آخر، المهم أن تكون تلك اللمسات واضحة لا تزول عند أول هبوب للريح.. هذا الأمر يتطلب منا ضرورة التواصل عاما بعد عام، فالتجربة لا تنضج عبر عمل واحد حتى إن كان ناضجاً بل يجب أن تستمر وتتواصل كي تأتي ثمارها ناضجة وكثيفة وعند ذاك يمكن تسميتها. حقاً .تجربة.

× بصفتك أديبة ما هي أهم إنجازاتك؟

. لقد كتبت وطبعت عدداً من الروايات والمجموعات القصصية، فضلاً عن الترجمات، فقد أصدرت رواية (فجر نهار وحشي) و(ممر إلى الليل) و(مطر أسود.. مطر أحمر) ولدي مجموعة قصصية صدرت عام ١٩٩٩ بعنوان (بخور) ولدي أيضاً كتاب (بستان الهمسات) بالاشتراك مع المصور الفرنسي بان لام دوك، صدر في عام ١٩٩٩ أيضا. أما في الترجمة فقد ترجمت (يوميات المقاومة في اليونان) وصدر في بيروت وترجمت أيضاً (منكرات أنجيلا ديفز) و(في انتظار البرابرة) ومن المؤمل صدور الأخير في القاهرة عما قريب.

× وأين تجدين نفسك في العمل الصحفي أم في الكتابة الروائية و القصصية؟

. العمل الصحفي مهنة، ولكنه عمل لذيذ وممتع وهو في الوقت نفسه يعد ميداناً حيوياً للتجربة واكتساب الخبرات، فإننا في مهنتنا هذه نتواصل مع الكتابة يومياً بل كل ساعة مما يزيد في قدراتنا الكتابية ويُنمّي أساليبنا ويجعلنا وجهاً لوجه أمام تجربة الكتابة، أما الكتابة الروائية و القصصية فإنها تعبير حقيقي عما يجول في أعماقي من مشاعر وأحساسيس وانطباعات، فأنا في الحقيقة أجد نفسي في الكتابة الروائية والقصصية أكثر مما أجدها في العمل الصحفي، ذلك لأنها الميدان الحقيقي للتعبير عن أفكاري وتجسيد تجاربي الحقيقية عبر صور ومشاهد فنية مبدعة ثم أن سمة الخلود غالباً ما تكون في حيازة العمل الروائي، أما الكتابة الصحفية فتتسم بالعرضية وعدم البقاء لأنها استهلاك يومي. في حين أن الترجمة تشكّل لدي ساحة لإغناء ثقافتي والاطلاع على تجارب الشعوب الأخرى لغرض تطوير قابلياتي.

هكذا عرفت الروائيّة ابتسام عبد الله

نهاد عبد الستار رشيد

عندما كانت تقدم برنامجها الشيّق"سيرة وذكريات"وتستضيف إحدى الشخصيات الثقافية، وتحاورها عن أهم منجزاتها وأبرز التحولات التي طرأت في حياتها الثقافية، التقيت بها مرات عدة، وأظهرت لها مدى اعجابي ببرنامجها التلفزيوني وأبديت بعض ملاحظاتي.
كانت شابة أنيقة المظهر، وفي منتهى الجاذبية، تترك شعر ناصيتها منسدلا على جبينها الناصع البياض، لها ملامح تثير في النفس الراحة والثقة والطمأنينة. قبل أن تستضيف شخصيتها، تدرسها بعمق، فنجدها تشارك الضيف في إلقاء الأضواء على بعض المواضع المبهمة في سيرته الثقافية. وكم كان يودي حضور نخبة معينة من المهتمين اثناء اللقاء لإبداء ملاحظاتهم وتعليقاتهم.

كانت الروائية البارزة ابتسام عبد الله غزيرة الإنتاج، فقد أصدرت أربع روايات، ومجموعة قصصية قصيرة، وترجمت الكثير من الأعمال الأدبية والفنية الأجنبية الى اللغة العربية.
صدرت لها قصة سنة ١٩٨٤ بعنوان (فجر نهار وحشي)، دارت أحداثها عن الحركة المسلحة التي قادها العقيد الركن عبد الوهاب الشواف للإطاحة بنظام الزعيم الركن عبد الكريم قاسم، وما تبعتها من احداث مؤلمة. وقد وثقت الروائية ابتسام عبد الله بعملها هذا تأريخ الموصل الحديث. بعد عامين من صدور هذه الرواية صدرت لها رواية جديدة بعنوان (ممر الى الليل)، ثم أعقبتها رواية (مطر أسود... مطر أحمر)، أما مجموعتها القصصية فقد حملت عنوان (بخور)، كما أن للروائية مجموعة قصصية جاهزة للنشر بعنوان (الليل والبستان)، وقد تم ترجمة العديد من قصصها الى اللغتين الأنكليزية والفرنسية، بالإضافة لذلك فقد ساهمت في اغناء المكتبة العربية بالعديد من ترجماتها لأبرز الكتّاب العالميين.
آخر رواية لها صدرت عام ٢٠٠٢ تحت عنوان"ميسوبوتاميا"(بين النهرين). كانت صورة شبح الاحتلال الزاحف على العراق شاخصة في ذهنها، وتصورت ما سيحل بالآثار العراقية من سلب ونهب ودمار. وقد تحققت تنبؤاتها، بل اصبح الواقع أكثر سوءاً بعد الاحتلال، حيث تم تهريب العديد من القطع الآثارية العراقية المهمة وأتلف بعضها. تقول الروائية ابتسام عبد الله عن روايتها الأخيرة (بين النهرين): "عندما كتبتها كانت فكرة الاحتلال القادم متجسدة أمامي صورة ثابتة، علماً أني أنجزتها في أواخر عام ٢٠٠١، لقد اخترت قصداً كلمة"ميسوبوتاميا»، اسم لمحل بيع الأنتيكات والتحف، وهي تعني بالنسبة لي، الأسم الذي أطلقه الآخرون على العراق، وكأني بذلك أعيد ذلك الأسم الى الحياة والذاكرة، دلالة على الحدث القادم. ورواية"ميسوبوتاميا"تترجم الآن الى اللغة الإنكليزية بعد اتفاقي مع الجامعة الأميركية في القاهرة على ذلك."
الثيمة الرئيسة في الرواية كانت عن الحصار الاقتصادي المفروض على العراق وما ترتب عليه من آثار سلبية من النواحي الاقتصادية والاجتماعية والنفسية. وتصدرت الرواية عبارة مقتبسة من ملحمة كلكامش. إلا أنه لم يسمح لهذه الرواية الرائعة بالنشر بعد احتلال العراق.
من ناحية ثانية، في وقت مبكر من عام ١٩٨٠، فاتحتني وزارة الثقافة والإعلام بكتاب موجه لي بأنها تنوي اصدار مجلة بعنوان"الثقافة الأجنبية"وطلبت مني أن أرفدها بما استجد من الأدب الحديث والفنون المعاصرة في مختلف بقاع العالم، فلبيت طلبها وبذلت قصارى جهدي في المشاركة بمحاورها المختلفة وتزويدها بمختلف الدراسات، واطلاع القارئ العربي على شتى التيارات الأدبية والفنية المعاصرة.
في عام ٢٠٠١، ارتأت وزارة الثقافة والإعلام في العراق تعيين الروائية العراقية ابتسام عبد الله، رئيسة تحرير مجلة"الثقافة الأجنبية»، فكنت من السباقين في تهنئتها في منصبها الجديد، وأبديت ملاحظاتي في المجلة، وقدمت لها دراسة وافية شملت أبواب المجلة ومحاورها، والإخراج الفني لها. وزودت المجلة بباج رسمته ليمثل دور المجلة الثقافي على المستويين العربي والعالمي، وسرعان ما تم اعتماد الباج رسمياً في جميع اعداد المجلة.
قالت السيدة ابتسام، وكان ثغرها يضيء ببسمة فاتنة: "شكراً جزيلاً على جهودك المخلصة تجاه المجلة، وأتمنى أن تنقل تجاربك الطويلة في الصحافة الأجنبية لهذه المجلة."
كانت كلماتها عذبة، ولطيفة، وتفصح عن ود ومحبة للناس. ثم طفقنا نخوض في شتى المواضيع التي تخص المجلة. وأنفقنا في مثل هذا الحديث ساعة تقضت على نحو خاطف، ثم استأذنت منها، ومضيت في سبيلي.
بعد أن تم منح الأدباء والفنانين والصحفيين، في عهد النظام السابق، رواتب شهرية دعماً لجهودهم الإبداعية، لم يتم ادراج اسمي ضمن قائمة الرواتب لأدباء فرع بابل، الذي أنتمي إليه، لأسباب أجهلها، فأحسست بالظلم والمهانة.
استبدت بي موجة عارمة من موجات الحزن، وكنت أتالم في اباء وشمم وفي كثير من الصمت والهدوء. وسرعان ما أصبح ذلك موضوعاً تتداوله الألسن أينما ذهبت. كانت الصدمة أعنف من أن تطاق، وضاقت الدنيا على رحبها في عيني، وأصبحت كثير الأنطواء على نفسي. لم يحدث قط في حياتي أنني تألمت كما أتألم الآن مما ساورني من شكوك جعلت ثقتي في أصدقائي وزملائي تنهار دفعة واحدة. إن هذا الموقف يحط من قدري ويسهم في إذلالي. وازداد هذا الحزن رويداً رويداً حتى أصبح قاسياً لا يحتمل. الا أن الفم يؤثر الصمت عن كثير مما يخالج النفس، وكنت قد وطنت العزم على الاصطبار.
كانت الأيام تمر بطيئة قاسية، وبرغم ذلك، كان هناك أمل يومض في قرارة نفسي، وكنت آمل أن شيئاً ما سيقلب موازين الأمور، ويصادفني حظ غير مرتقب.
في ذات مساء، ترامى الى اذني نداء صديق يأتيني من الجانب الآخر للطريق. التفت باتجاه مصدر الصوت، وإذا به زميلي الدكتور صباح المرزوق. ترجل من عربته، وراح يبلغني بضرورة مراجعة محاسبة مجمع آفاق في بغداد لتسلم راتب الأدباء...ها قد ومضت بارقة أمل في الأفق. أنزلت هذه الكلمات في نفسي السكينة... وانسرى همي، وانفرجت أساريري في الحال، وشعرت انني اتحرر من وطأة ذلك اليأس، وأن الحياة قد بدأت تبتسم لي من جديد، وأصبحت ثقتي بالمستقبل تزداد، وبدأت مرحلة من اعادة ثقتي بالآخرين تتنامى، فرحت أعدو مع الريح، وكنت في مشيتي كأنني لا أكاد أطأ الأرض تيهاً وزهواً.
في وقت مبكر من صباح اليوم التالي كنت قد وصلت مجمع آفاق، وتسلمت راتبي. وعند خروجي من مكتب المحاسبة التقى بي الأستاذ كاظم سعد الدين وابلغني أن السيدة ابتسام عبد الله قامت بإدراج اسمي ضمن أسرة تحرير مجلة الثقافة الأجنبية. استشعرت حافزاً قوياً يدعوني الى وجوب تقديم شكري وامتناني للسيدة ابتسام على موقفها هذا، فذهبت إليها من دون إبطاء.
ألفيتها جالسة في مكتبها، انسانة نبيلة، ورقيقة، وحسنة الملامح. تبدو على وجهها سيماء اللطف والذكاء، فقلت لها بلهجة صادقة :
"– شكراً أم خالد على درج اسمي ضمن أسرة تحرير المجلة."
فأجابت بصوت بدا فيه الحزم والرزانة والهدوء :
"– هذا حقك أستاذ نهاد، بل أنت تستحق اكثر من ذلك. لقد عملت بجهد استثنائي لرفد المجلة بما تجده مفيداً من الآداب الأجنبية الحديثة والفنون المعاصرة. كما أنك دائماً تفكر أن الغد يحمل المفاجأة».
فقلت لها بلهجة اعتزاز وقد فاض صدري بعرفان الجميل :
"– إن جل ما اصبو إليه هو أن أحظى بثقتك."
بعد أن تناولنا الشاي، غادرت مكتبها. وقلت في نفسي متعجباً :
"– ما أكثر المزايا الفائقة، والخصال الرفيعة التي اكتشفها في هذه المرأة الرائعة."
من أعمال الروائية ابتسام عبد الله المترجمة الى اللغة الإنكليزية قصة"في البستان»، قام بترجمتها دنيس جونسون ديفيز سنة ١٩٩٠، وتدور أحداثها عن آثار الحصار الأقتصادي على المجتمع العراقي وبخاصة الطبقة الفقيرة، والمحت عن نشوء طبقة جديدة من الأغنياء المنتفعين من ظروف الحصار، وقصة"دار الحضانة"نشرت في (بانيبال) سنة ٢٠٠٣، وقصة"في الحديقة"التي صدرت في الأهرام الأسبوعي سنة ١٩٩٨ وهي من ترجمة دنيس جونسون ديفيز، والرواية الخيالية العراقية المعاصرة: وهي مقتطفات أدبية مختارة صدرت سنة ٢٠٠٨، وترجمت السيدة ابتسام العديد من الأعمال الأدبية العالمية الى اللغة العربية كان من ضمنها : رواية"في انتظار البرابرة"لمؤلفه جون ماكسويل كويتزي، الروائي الشهير المولود سنة ١٩٤٠ في كيب تاون (جنوب افريقيا) والحاصل على جائزة نوبل للآداب لعام ٢٠٠٣، وكان قد فاز مرتين بجائزة بوكر الأدبية البريطانية الراقية، ويقوم حالياً بالتدريس في جامعة شيكاغو.
كما ترجمت الى العربية"مذكرات ميكيس ثيودور اكيس»، الموسيقار والسياسي اليوناني المشهور الذي ارتبط اسمه عند كثير من الناس بموسيقى فيلم (زوربا اليوناني). وقد عرف عنه مناصرته لقضايا حقوق الإنسان ويعتبر من ابرز الشخصيات العالمية المؤيدة للقضية الفلسطينية. وترجمت السيرة الذاتية لـ (أنجيلا ديفز)، الناشطة السياسية الأميركية التي بلغت قمة نشاطها في نهاية الستينيات امتداداً الى السبعينيات من القرن العشرين. عضويتها في الحزب الشيوعي قادت الى طلب رونالد ريغن في سنة ١٩٦٩ لمنعها من التدريس في أية جامعة في ولاية كاليفورنيا. السيرة الذاتية لأنجيلا ديفز صدرت سنة ١٩٧٤، تخبرنا بقصة أول (٢٨) سنة من حياتها، منذ ولادتها حتى إلقاء القبض عليها وسجنها ومحاكمتها.

قراءة في (بخورا) ابتسام عبد الله

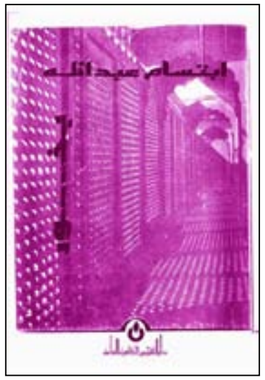

ناطق خلوصي

يبلغ عمر السرد النسوي في العراق نصف قرن بعد، وما زال عدد كاتباته محدوداً إذا ما قيس بعدد الكتّاب، وظل حجم ما كُتب أو يُكتب عنه محدوداً هو الآخر. ويمكن القول إن البدايات الحقيقية لهذا السرد تعود الى أواخر ستينات القرن الماضي أو الى أوائل سبعينياته، حيث ظهرت أسماء ابتسام عبد الله ولطفية الدليمي وعالية ممدوح ومي مظفر وسميرة المانع وبديعة أمين وسالمة صالح وسافرة جميل حافظ وديزي الأمير وسهيلة داود سلمان، لتظهر بعدها أسماء ميسلون هادي وإلهام عبد الكريم وهدية حسين وبتول الخضيري وبثينة الناصري وانعام كجة جي وعالية طالب وإرادة الجبوري وذكرى محمد نادر، ونعيمة مجيد، وصولاً الى أسماء كليزار أنور وايناس البدران وكاتبات قصة أخريات ظهرن خلال السنوات الأخيرة.
إن خصائص هذا السرد ترتبط بخصوصية الوضع الاجتماعي والنفسي للمرأة بشكل عام والقاصة بشكل خاص، فضلاً عن طبيعة الظروف الموضوعية المحيطة بها، وهي خصوصية تملي على القاصة ضرورة الحذر في التقاط الأحداث واختيار نماذج الشخصيات وطبيعة التناول لأن ما يُسمح للقاص بأن يتناوله في هذا المجال، قد لا يكون مسموحاً للقاصة أن تفعله، لاسيما أنها تواجه تابوات الممنوع والمحرّم في تناول ما يمكن أن يعد خروجاً عن المعايير الأخلاقية والاجتماعية التي تحكم المجتمعات المحافظة. فموضوعة الجنس ظلت تدخل في إطار المحظورات حتى بالنسبة للقاص العراقي قبل أن ينفلت ذو النون أيوب وفؤاد التكرلي ومهدي عيسى الصقر ثم نجم والي من هذا الإطار بفعل عوامل ذاتية وموضوعية ساعدتهم في ذلك، وبالتالي ظلت هذه الموضوعة داخل إطار المحرمات والمحظورات بالنسبة للقاصة العراقية، ومثلها ظلت موضوعة الدين التي لا يقترب منها حتى القاص العراقي إلا بحذر شديد بخلاف موضوعة السياسة التي قد يسرف القاص في تناولها في حين تظل القاصة على تماس سطحي معها أحياناً. أما الحرب، وهي مهنة الرجل بشكل خاص، فقد ظلت محور اهتمام القاص العراقي على امتداد بضعة عقود من السنين بفعل عمق تجربته فيها بسبب انغماره فيها مقاتلاً أو مراسلاً حربياً أو شاهداً عيانياً خلال زياراته لجبهات القتال، في حين ظل تناول القاصة لهذه الموضوعة محدودا ويتم بالتعامل مع انعكاساتها الاجتماعية والنفسية بشكل خاص. لقد أوردت"ببلوغرافيا قصة الحرب : ١٩٨١ ـ ١٩٨٨"التي اصدرتها دار الشؤون الثقافية العامة لتوثيق ما صدر من أعمال سردية عن الحرب العراقية ـ الإيرانية، عناوين أكثر من مئة وسبعين مجموعة قصصية ورواية كان من بينها مجموعتان قصصيتان ورواية واحدة فقط لقاصتين عراقيتين.
إن عالم المرأة القاصة الفسيح ينفتح على حزمة من هموم وهواجس ومشاغل وارهاصات ومشاعر خاصة بها لا يمتلك غيرها القدرة على اختراقها إبداعياً للتعبير عنها بالشكل الذي يغطي اشكالياتها المختلفة وبما تمليه أحاسيسها الداخلية بخلاف ما يفعله القاص الذي يتعامل معها من الخارج عند تناوله لها، فيتجلى في ذلك الفارق في مستوى الصدق في التعبير عنها بينهما. وثمة عناصر تسهم في صقل تجربة القاصة وتتمثل في مستوى ثقافتها وحجم اطلاعها على المنجز السردي العربي والعالمي الى جانب اتقان لغة اجنبية واحدة أو أكثر من لغة. ويتضح تأثير هذه العناصر من خلال الفوارق بين قاصة وأخرى في اسلوب التناول ولغة السرد. ويبدو أن الانتظار، انتظار الغائب أباً أو أبناً أو أخاً أو حبيباً، صار مهنة المرأة العراقية بامتياز حيث ظل هاجساً يلاحقها وهي تعيش سنوات الحروب والحصار والانكسارات، ويبدو ذلك واضحاً في كل النماذج التي اخترناها هنا.

بخور : ابتسام عبد اللّه

صدرت هذه المجموعة في العام ١٩٩٨ (وكنا قد تناولناها عند صدورها) وتقع في اثنتي عشرة قصة قصيرة مفعمة بالحسّ الإنساني وحميمية الارتباط بواقع المرأة والهموم التي يفرزها هذا الواقع، يتمازج فيها نشيد التوق الانساني للانعتاق من أسر الألم، مع نشيج الأحزان ومرارة الإحباط والاحساس بالانكسار الداخلي، إذ تبدو احدى عشرة قصة منها كأنها متوالية قصصية ينتظمها خيط روحي واحد ويشدها نسيج متجانس تقريباً وتشغل الحيّز السردي في كل منها شخصيتان: امرأة ورجل، هذه الثنائية الأزلية التي رافقت الوجود الانساني منذ بدئه. إن المرأة في قصص ابتسام عبد الله لا تعاني من اضطهاد الرجل أو تقع تحت سطوته الصارمة. إنها على العموم مثقفة تمتلك حريتها الشخصية لكنها تعاني من قهر الظروف المحيطة بها، وهي ظروف خارجة على ارادتها، لذلك تبدو حياتها الأسرية قلقة، مضطربة، لا تعرف الاستقرار. ويحلّق هاجس القلق في فضاءات القصص، ويشكل الانتظار هاجساً يؤرق المرأة، لاسيما حين يكون مصحوباً بالخوف أو القلق، فتلوذ بالصمت الثقيل والعزلة تبعاً لذلك، وهذه ثيمات تقع في مجرى التداول القصصي عند القاصة.
تتعرض القاصة في خمس من قصص المجموعة الى موضوعة الحرب، ولكن ليس ببعدها القتالي أو التعبير عنها من خلال الخطابية والمباشرة. فهي تتعرض للحرب ببعدها الإنساني والمأساوي بجرأة هي امتداد للجرأة التي تتعامل بها مع علاقة المرأة بالرجل، إذ تدرك أن قصة ما بعد الحرب تستلزم نسق تعبير مختلفاً، ناشئاً عن رؤية خاصة تقوم على المزاوجة المتوازنة بين ما هو عقلي وما هو عاطفي مثلما تستلزم اسلوباً يتوافر على القدرة على الاقناع وينأى بالقصة عن فجاجة المباشرة وسطحيتها.
لكن قصتها"جداول الصمت"تبدو كأنها تنفلت لوحدها عن سياق المجموعة أحداثاً وشخوصاً، فهي تقحم القارئ في لجة الواقع المأساوي منذ مفتتح القصة حيث يرى"أربعة صناديق خشبية طويلة ورفيعة، مصفوفة الواحد جنب الآخر تنتظر منذ أيام أن يأتي من يتعرف على أجساد أربعة بداخلها، من يتطلع اليها بمحبة، من يحتضنها بحنو ليدفنها فيما بعد في حفرة من الأرض». أما قصة"في المرآة"فهي واحدة من أجمل قصص الحرب. إنها تنطوي على استقراء لمفردات أجواء الحرب وانعكاساتها على الوضع النفسي ومظاهر هذه الانعكاسات في التركيبة الداخلية / الخارجية لشخصيتي القصة. فعلى الرغم من أن المرأة في هذه القصة ليست على تماس جسدي مباشر مع الحرب كفعل قتالي إلا أنها تظل على تماس روحي معها وهو تماس له وطأته الثقيلة عليها: "عرفت مع مر الأيام كيف أمضي الوقت بل أقتله بالصمت. إنها حرفة تمرستُ بها منذ ذهابه الى الحرب أو سوقه إليها».

عراقيون
من زمن التوهج
ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
رئيس مجلس الإدارة رئيس التحرير
فخري كريم
رئيس التحرير التنفيذي
علي حسين
سكرتير التحرير
رفعة عبد الرزاق
الاخراج الفني: خالد خضير
طبعت بمطابع مؤسسة
المدى
للإعلام والثقافة والفنون
WWW. almadasupplements.com

ابتسامة ابتسام

علي حسين

أعادتني قصص ابتسام عبد الله في مجموعتها " بغداد.. الليل والبستان " إلى سحر الكتابة ومتعة أن تجذب انتباه قارئ إلى كلام يشده ويشعره بالمتعة. ابتسام عبد الله شحيحة في قصصها القصيرة، فهي لم تنشر خلال تاريخها الأدبي سوى مجموعتين قصصيتين نكتشف فيهما قدرة فريدة على القص، عالم حكائي خصيب، عالم لا يضاهي الواقع برغم أنه مصُوغ من مفرداته، ولا يحاكيه بالرغم من أنه يكشف لنا قوانينه الداخلية العميقة . قصص ابتسام عبد الله تؤكد مفارقتها لعالم الواقع ومرافقتها الحميمة له في آن واحد ، وترقب وعينا بما ينطوي عليه هذا العالم الكابوسي الحبط ، والمترع بالجمال معاً من عمق وصرامة، في حكايات تفيض شاعرية وتزهر باناقة الكلمات. وابتسام عبد الله القاصة والاعلامية والمترجمة القديرة طراز فريد من المبدعين الذين تتعدد مواهبهم وتتنوع اهتماماتهم، بدأت بنشر أول أعمالها الأدبية منتصف الثمانينيات، ثم تتابعت أعمالها لتشمل الرواية والقصة القصيرة والترجمة، والاهتمام بالسينما والفن التشكيلي والموسيقى، ولا شك في أن التعدد في أنشطة ابتسام عبد الله هو اول ما يلفت انتباه المتابعين لها ، فإلى جانب التوقد في الإبداع القصصي والممارسة البارعة في مجال الترجمة، هناك التحرك المبدع الذي تنقلنا معها فيه من مجال الى مجال، من نقد فني الى ترجمة تحفة ادبية ، ومن الشغف بتاريخ الفنون الى الشغف بالحكايات ، إنه التعدد الذي يبدو صاحبه نهماً في التعرف على كل مجالات الإبداع الإنساني وتقديمها، فابتسام عبد الله تسعى من خلال كل هذه المجالات الى امتلاك مفاتيح الكتابة وأدواتها وأساليبها والتعريف بها،وهو التعدد الذي يميز النماذج الفريدة من مبدعات العراق ،اللواتي جمعن الى الكتابة الوعي بهموم المجتمع ، والتعرف على اسرار الابداع . في معظم أعمال ابتسام عبد الله الإبداعية، نجد أن تناول قضايا المراة والدفاع عن حقها في ممارسة حريتها ، هو المدخل الى أفق الابدجاع القصصي عند ابتسام عبد الله ، حيث تستوقفنا فيها جمال الموقف الانساني وعذوبته ، وقدرة الكاتبة على التعبير الدقيق الخالي من الحشو والزوائد ، حيث يعيش القارئ مع سحر الكتابة ولذتها . في قصصها القصيرة تحاول ابتسام عبد الله ان تقدم لنا لوحة مليئة بالدهشة تذكرنا بان الكتابة اشبه ببؤرة مضيئة ، ونكتشق ايضا قدرة الكاتبةعلى تكثيف صورها والوصول الى معانيها . ابتسام عبد الله نموذج لكاتبة متميزة ، تثير عند القارئ الإعجاب والفرح، بسبب جدة وحيوية الأفكار التي تطرحها، وولعها بسحر الحكايات ، ونموذج لامراة استطاعت ان تؤكد حضورها المتميزة في المشهد الثقافي العراقي ، وبعد هذا وقبله هي نموذج لإنسانة لاتزال ابتسامتهاالجميلة تملأ المكان الذي شغلته بجدارة في صحيفة المدى لسنوات .